المكان و منطوق الكتابة
قراءة في تجربة الطلل الجاهلي

أ. عمارة بوجمعة[1]

1 – الطلل : ثنائية الطبيعة /الثقافة:

تشكل تجربة الوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي انتصارا لغريزة الحياة على فاعلية الجدب والموت .إن الشاعر الجاهلي يحرص في هذا الموقف أن يخلق من محتويات الطلل و عناصر الطبيعة واقعا متخيلا وحميميا ، يتجاوز من خلاله علامات الفناء و الموت عبر فاعلية رمزية تتناغم فيها أشياء الطلل مع ذاكرته وحلمه،وهو في هذا الموقف يكشف عن علاقة أنطولوجية متجذرة في علاقة الإنسان بمكانه،الذي هو أيضا صورة القبيلة و موطن هويتها و رمزها القوي لتحقيق الاستمرارية و الثبات .إن لحظة هذا الشعر ، وهي تعرض صورة الموت كما يجسدها الطلل تشكل على صعيد التجربة الروحية لهذا الوقوف دفعا حقيقيا لمغالبة الإحساس بالخوف والموت و انتصارا رمزيا يختزل هاجس الشاعر الجاهلي في بحثه عن مقومات أفضل للحياة .هنا يصبح الطلل طاقة حياتية تحول أحداث الحياة المبعثرة إلى رموز باقية تثبت ذاكرة المكان و ذاكرة القبيلة . إن صورة الإثبات والتوالد الطبيعي التي تلتئم في الموقف الطللي بعلامات التجربة الإنسانية و رموزها (الكتابة ،الوشم،الاثافي،التوي) تحول الطللي إلى فعل يثبت وجود الإنسان في إيقاع التعاقب الزمني وإطار الصيرورة الطبيعية في المجتمع الجاهلي .

2 – الطلل و فضاء الكتابة:

إن السياق الذي يبين عن علاقة الطلل بالكتابة في طللية الشعر الجاهلي يحيل في كثير من الأحيان هذه الصورة إلى رغبة عميقة لدى الشاعر في البحث عن ما ينطوي عليه الطلل من دلالات و أسرار1، غير أن هذه الرغبة (تواجه دائما بقدم الكتابة و تغيرها و صعوبة قراءتها على الرغم من ثباتها و استمرارها]2 ، كما أنها تعين من جهة أخرى ما يتصل بها من عناصر ، كالوحي ، و الصحيفة و الكتب و القلم ،و بالقدر الذي تسهم فيه هذه العناصر في الكشف عن الجانب الانثروبولوجي للكتابة في العصر الجاهلي فإنها تعين الحضور الذي ظلت فيه الكتابة لصيقة بفعل الإنسان و تجاربه و أحلامه و من أمثلة تشبيه الطلل بالكتابة، يقول المرقش الأكبر3:

هل بالديار أن تجيب صمم　　لو كـــــان رسم كتم
الدار قفر و الرسم كمـــا　　رقش في ظهر الأديم قلم

و يقول عبيد بن الأبرص(4):

لمن الدار أقفرت بالعقاب　　غير لؤي ود منة كالكتاب

---

[1] – أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية و آدابها – كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة سيدي بلعباس – الجزائر.

إذا كان اقتران الطلل بالكتابة ، يمكن أن يفسر من خلال سياقه الأنثروبولوجي الذي يشير إلى نطاق معين لتداول الكتابة في العصر الجاهلي ، فإن الدلالة الرمزية للكتابة كما جسدها الموقف الطللي لا تفهم –عادة- إلا من خلال فهم للموقف الطللي نفسه، بوصفه تجربة روحية تتصل بوجدان المجتمع الجاهلي و برمزيته الموجهة لتثبيت مكان الإنسان و وجوده .و على هذا النحو كانت الكتابة مساقة رمزية تجلي القيمة الطللية في أبعادها الوجودية و الإنسانية على نحو ما جاء في قول زهير ابن أبي سلمى (5):

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطلة و عرى أفراس الصبا و رواحله
وأقصر عما تطلبين و ـــــــدت علي ســوى قصد السبيل معـاقله (6)
وقال العذارى: إنما أنت عمتنـــــا وكـــــان الشباب كالخليط نزايله
فأصبحت ما يعرفن إلا خليقتـــــي و إلا سواد الرأس و الشيب شامله
لمن طلل كالوحي عاف منازلـــــه عفـــا الرمس منه فالرسيس فعاقله

يجيل سؤال الطلل في نص زهير بن أبي سلمى إلى فاعلية الزمن الذي يجذب المكان والإنسان . إن الشيب في هذه الصورة علامة على الشاعر و تجليا لهشاشة الوجود الإنساني أمام سطوة الزمـــن وقوته .إن اللحظة التي تكشف وعي الشاعر بالزمن و التغيير تجعل عنصر الكتابة (الوحي) ترجمة للأبعاد العميقة في نفسه وهواجسه، فتشبيه الطلل بالكتابة يحيل إلى رغبة الشاعر في حفظ المكان من التبديل و التغيير و الإمحاء . إن الكتابة (الوحي) تستمد من خلال بعدها الفيزيقي و من خلال سمتها اللونية وطابعها الرمزي فاعليتها القوية في تحقيق الثبات و الديمومة . إن التناقض الانطولوجي للون الكتابة مع صورة البياض (الشيب) تجعل الكتابة قوة تنتصر على الطلل المعرض للتغيير و التبدل و الزوال و هي تشكل في هذه المساقة من العبور رغبة قوية للخروج من أسر الزمن و المكان و ضمن هذا المعنى يقول سلامة بن جندل (7) :

لمن طلل مثل الكتابة المنمق خلا عهده بين الصليب فمطرق
أتت عليه كاتب بدوانـــــه و حادثه في العين جدة مطرق

إذا كان الاستفهام في الخطاب الكتابي : (لمن الطلل) يتماهى مع الدلالة التي تجعل الكتابة حضورا في الصمت و التلاشي ، فإن الحركة التي تجليها فاعلية هذه الكتابة تصبح على مستوى آخر تصميما للفعل الإنساني و إنجازه . الكتابة في هذه المساقة التي تجعلها قطبا مثيرا لتوليد المتعة و تحرير طاقة التجربة و الخيال تكون قوة مضادة لفراغ المكان وسكونه . فإذا كان الطلل ينطلق من فعل الزمن و هواجسه فإن ، الكتابة تحقق الامتلاك الرمزي للمكان من أجل تجاوز الشعور بالموت و الفناء .هذه الدلالة المثيرة تأخذ شكلا جوهريا أكثر بروزا في مقدمة عمرو العبدي(8):

لمن دمن كأنها صحائـــــف قفار خلا منها الكتيب فواجف
قما أحدثت فيها العهـود كأنها تلـعب بالسمان فيها الزخارف
أتت عليها كاتب بدوانـــــه يقيـــم بديـــه تارة و يخالف
رجا صنعه ما كان يصنع جاسما و يرفع عينيه عن الصنع طارق

تشكل دلالة الكتابة في مقدمة عمرو العبدي تأطيرا قويا للفاعلية الزمنية و للجهد الإنساني الذي يحاول أن يضفي على فراغ المكان حالة من القوة و الديمومة و الثبات. إن الكتابة بهذا المعنى الذي تحفز فيه على المشاركة الوجدانية و التأمل الجمالي تمنح الدلالة التي تمكّن الطلل من الكشف عن محتواه و فاعليته

الرمزية،هكذا تحضر الكتابة من عمق الطلل بوصفها إبداعا إنسانيا يستجيب لإحساس الشاعر أمام صورة العفاء. وعند هذا تتميز هذه الفاعلية الإنسانية بالحضور الرمزي للجسد الإنساني و للكتابة التي ترتبط أنطولوجيا الموت (9) أيما هي تنفتح على إيقاع الحياة و إيقاعات الحلم . إن حركة الأفعال التي تشكل الخطاب الطللي: (أكب ، يقيم ، يخالف ، يصنع ، يرفع ..) تمنح المكان تشكيلا جماليا يضفي على واقع الطلل حالة من الإبهار والتأمل .

وفي هذا المنظور تحيل رمزية الكتابة إلى هذا النزوع لإعادة تشكيل المكان و تأكيد غريزة الحياة الذي ظلت (المحرك الأساسي لذهن العربي وتصرفاته و سلوكه ، و الدافع الأصيل الذي ينطوي أو يختفي وراء كل مظهر من مظاهر نشاطه)) 10 و في هذا السياق يكشف التأويل الرمزي للفعل الكتابة عن حيازة للمكان. فالاستغراق الكبير للفعل الكتابة يجلي معاناة التجربة و يظهر كذلك ما يقف خلف هذا الفعل من دلالات رمزية ذات صلة بالعلاقة الأسطورية الكامنة في علاقة الشاعر

الجاهلي بمكانه ، هكذا تغدو صورة الكتابة كما ينوه بها الجسد في هذه المقدمة علامة تحتل المسافة بين الشيء المفقود (المكان) و طبيعة الرغبة الإنسانية في جهدها للحفاظ على وجودها و استمرارها .

الإحالات:

1 - ينظر على سبيل المثال : المفضل الضبي : المفضليات ، تحقيق و شرح محمد شاكر و عبد السلام هارون ط6شيكان ، ص281 ،329 ،373 ، و ينظر : قيس بن الخطيم الديوان ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، دار المعرفة بيروت 1963 ، ص 7، 96 . عبيد بن الأبرص الديوان ، شرح أحمد خفرة ،دار الكتاب العربي بيروت 1994. أبو العباس ثعلب شرح ديوان زهير بن أبي سلمى دار الكتاب العربي بيروت 1989 ، ص 113.

- الأصمعي : الأصمعيات ، تحقيق احمد شاكر و عبد السلام هارون ، دار المعارف ط3 مصر 1968 ص 132.

2 - حسن البنا نصر الدين (الخشبات و الأشياء) التحليل البنيوي للقصيدة الأطلال في الشعر الجاهلي . دار المتاهل للطباعة والنشر و التوزيع لبنان ط1 1989 ص 126.

3 - المفضليات ص 237.

4 - عبيد ابن الابرص ، الديوان ص 35 .

5 - أبو العباس ثعلب ، شرح ديوان زهير ابن أبي سلمى ، تقديم حنا نصر الحتي ، ص 113 و ما بعدها .

6 - الوحي : الكتاب ، و الجمع وحي ،الرسيس : اسم موضع.

7 - الأ صمعيات : ص132.

8 - المفضليات ص 281 .

9 - فريد الزاهي ، الحكاية و المتخيل ، افريقيا الشرق – الدار البيضاء المغرب ط1 1991 ، ص 93.

10 - محمد زكي العشماوي : القايمة الأدبية – دار النهضة العربية ، بيروت ط1 1980 ص 222.